مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد 13، العدد 51 (صيف 2002)، ص 128

حارة المغاربة: تاريخ الحاضر*

توم عبود**

مقدمة

تنوعت المحاولات الإسرائيلية لإعادة تشكيل (re-configuring) القدس العربية طوال نصف القرن الماضي. وكان انتحال الشكل في المناطق المبنية الفلسطينية من المدينة جرى، في معظم الأحيان، بالاستيلاء على المنشآت والبيوت والأحياء العربية وتفريغها من سكانها العرب، وإحلال تواريخ جديدة ومجتمعات جديدة ومعان جديدة محل القديمة. فقد استولت الدولة اليهودية الناشئة سنة 1948 على أحياء بأكملها، وعلى آلاف المنازل العربية. لكن هذه الدولة عمدت، بين الحين والآخر، إلى تدمير وإزالة مناطق سكنية فلسطينية تعوق الرؤى الإسرائيلية للحكم الحصري في ما تعتبره الصهيونية السائدة عاصمة إسرائيل "الأبدية" و"الموحدة".

كانت حارة المغاربة، التي أنشئت قبل 700 عام في عصر الأيوبيين والمماليك، تؤوي نحو 650 شخصاً و100 عائلة عشية حرب حزيران/يونيو 1967. وقد دمرتها الدولة الإسرائيلية في الأيام التي تلت مباشرة احتلالها للقدس الشرقية. ويمثل الحيّز الذي كانت تشغله الحارة موقعاً تقاطعت فيه ممارسات التطهير العرقي والسلب الواسع مع الخطاب الإسرائيلي عن "المقدَّس" وسواه من الأفكار التي تسوِّق الحق اليهودي الحصري في المدينة، المنقطع عن التاريخ.

إن ما يشار إليه اليوم في الخرائط الصهيونية المتداولة بأنه "ساحة الحائط الغربي" لم يُنشأ إلاّ حديثاً. والحائط نفسه، الذي كان ذات يوم الجانب الغربي للهيكل الهيرودي (الهيكل الثاني)، هو مكان لعبادة اليهود منذ عدة قرون. غير أن الحيّز الموجود حالياً أمام الحائط – وهو شاذ بمعايير المدينة القديمة المزدحمة بالسكان، بسبب خلوّه من أشكال معمارية – ما هو إلاّ بدعة حديثة.

طابع الحارة قبل سنة 1948

كانت المنشآت التي تكونت منها هذه الحارة طوال سبعة قرون عائلية ودينية واجتماعية، ومبنية من الحجر والآجر. وكانت هذه المباني، المتواضعة والمتلاصقة

---

* **المصدر:** *Jerusalem Quarterly File*, no. 7 (Winter 2000, 2001), pp. 6-14.

** مرشح لنيل الدكتوراه، في قسم الأنثروبولوجيا في جامعة كولومبيا. وتعالج أطروحته سياسات الحيّز والعنصرية وإعادة كتابة التاريخ في القدس المعاصرة.

والمؤلفة من طبقة أو طبقتين، تحيط بشبكة من الأزقة الضيقة التي تتعرج في هذه الحارة الفقيرة في مجملها. وقد ازداد تنوع سكانها في القرون التي أعقبت نشوئها. وكانت أكثرية العائلات التي سكنتها تعود في أصولها إلى المغرب. وقد جلب الحج أو الاضطهاد في المواطن السابقة الكثير من الناس إلى القدس. وعلى امتداد قرون كثيرة، أقام يهود ومسيحيون ومسلمون عرب من فلسطين ومن غيرها في هذه الحارة.

يُرْجِع عدد من مؤرخي القدس تاريخ حارة المغاربة إلى زمن الأيوبيين. ويروي مجير الدين أن الأفضل نور الدين (ابن صلاح الدين) وقف حارة المغاربة بأكملها على المغاربة من دون تمييز بين أصولهم، وأن ذلك وقع عندما كان الأمير يحكم دمشق [1186 – 1196]، التي ضُمت القدس إليها.(1) وسمح في الوقت نفسه ببناء حي الشريف الذي تشير إليه إسرائيل اليوم بـ "الحي اليهودي".(2) وبصفة المنطقة وقفاً فقد خُصِّصت لخدمة الوافدين الجدد من المغرب. ومنذ القرن الثالث عشر حتى أواخر أيام الحكم الأردني في سنة 1967، كان المهاجرون يصلون إلى هذا الحي من أجزاء العالم الإسلامي الغربية، ويزورونه ويتخذونه موطناً لهم.

هذا الركن من البلدة القديمة، الذي تبلغ مساحته 10.000 متر مربع، أصبح موقعاً لعدد من المنشآت التي أقيمت في عهد الأيوبيين والمماليك. وتضم هذه المنشآت جامع المغاربة قرب باب المغاربة، والزاوية الفخرية.(3) وأنشأ الأفضل أيضاً المدرسة الأفضلية في هذه الحارة، في القسم الأخير من القرن الثاني عشر، ووقفها على فقهاء المالكية.(4) وكانت الحارة، وفق تكوينها في القرن الثالث عشر، تمتد إلى بُعد بضعة أمتار من الحائط الغربي. وهذا الحائط، الذي يرجع إلى الحقبة الهيرودية، والمعروف عند اليهود منذ الهيكل الثاني بأنه المكان الذي "يتجلى فيه الرب"، كان يُستخدم بصورة منتظمة موقعاً للصلاة بعد أن أمر السلطان سليمان بإفساح حيّز بين حارة المغاربة والحائط لهذه الغاية. لكن الدليل على ممارسة الصلاة بصورة منتظمة في الموقع قبل عهد سليمان، يبدو غامضاً بعض الشيء.(5)

---

(1) انظر: مجير الدين الحنبلي، "الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل" (عمّان: مكتبة المحتسب، 1973).

(2) المصدر نفسه. انظر أيضاً العمل الممتاز:

A. L. Tibawi, *The Islamic Pious Foundations in Jerusalem: Origins, History, and Usurpation by Israel* (London: The Islamic Cultural Center, 1978).

(3) انظر: Michael Hamilton Burgoyne, *Mamluk Jerusalem* (London: The British School of Archaeology for the World of Islam Festival Trust, 1987).

(4) وفقاً لدونالد ليتل، "كان موقع المدرسة في حارة المغاربة ملائماً، نظراً إلى أن أصول معظم أتباع المالكية تعود إلى شمال أفريقيا." انظر:

Donald Little, "Jerusalem under the Ayyubids and Mamluks, 1187-1516 AD," in *Jerusalem in History*, edited by K. J. Asali (Bukhurst Hill: Scorpion, 1989), p. 180.

(5) وفقاً لبيترز، توحي روايات زوّار القدس اليهود في القرون الوسطى الإسلامية بأن "صلاة اليهود كانت في معظمها تقام داخل كنس في الحي اليهودي، وفي المناسبات العامة كانت تقام غالباً على جبل الزيتون

1948 – 1967: مدينة منقسمة

أدت حرب 1948 إلى تقسيم المدينة، إذ احتفظ الأردنيون بالبلدة القديمة، في حين استولت إسرائيل على القسم الغربي من المدينة. وقد وقع قتال عنيف في جوار هذه الحارة بين القوات الصهيونية، التي أُرسلت لانتزاع هذه المنطقة، وبين القوات الأردنية. وقد هُزم الصهيونيون في النهاية في صيف سنة 1948، وطُردوا مع 1500 يهودي مدني من هذا القسم من البلدة القديمة (أُرسل غير المحاربين عبر الحدود التي قسمت المدينة إلى قطاعين أردني وإسرائيلي، بينما احتُجز الجنود الإسرائيليون ثم أُطلقوا بعد بضعة أشهر). وتزامن هرب هؤلاء اليهود الـ 1500 مع اقتلاع 700.000 عربي من مناطق فلسطين التاريخية التي استولى عليها الصهيونيون سنة 1948، بما في ذلك 70.000 طُردوا من أحياء القدس والقرى المحيطة بالمدينة.(6)

يتذكر سكان حارة المغاربة، عند استعادتهم لسنوات "المدينة المقسَّمة"، الصراع الذي دار بين المقيمين وأصحاب الأملاك الفلسطينيين بشأن حقوق ملكية بعض الأملاك العائلية في الحارة. ومن اللحظات المهمة التي ترد إلى الذاكرة، إخلاء الشاغلين الفلسطينيين لأملاك يهودية مجاورة لحارة المغاربة سنة 1965 بأمر من الحكومة الأردنية، وما تلاه من نقل لهذه العائلات إلى مخيم شعفاط للاجئين، الواقع على بعد أربعة كيلومترات شمالي البلدة القديمة.(7) ولا تزال التكهنات بشأن النيات الأردنية فيما يتعلق بهذه القضية متداولة حتى يومنا هذا في القدس الفلسطينية.

1967: "تحرير" القدس الشرقية

جاء احتلال إسرائيل للقدس الشرقية في الأسبوع الأول من حزيران/يونيو 1967 مفاجئاً، وجعل المدينة بأكملها خاضعة للسيطرة الإسرائيلية المنفردة. ومع هذا الاحتلال الإسرائيلي للقدس الشرقية جاءت مجموعة كاملة من المبادرات البيروقراطية التي كان الهدف منها إعادة تشكيل هذا الحيّز [الذي تشغله حارة المغاربة] المتنازع في شأنه بشدة. وقد مثّلت المخططات [التي أُعدت له]، والافتراضات التي تستند إليها،

المشرف على موقع المعبد من الشرق." انظر:
F. E. Peters, *The Distant Shrine* (New York: AMS Press, 1993), pp. 242-243.

(6) انظر: Salim Tamari, "The Phantom City," in *Jerusalem 1948: The Arab Neighbourhoods and their Fate in the War* (Jerusalem: Institute of Jerusalem Studies and Badil Resource Center, 1999).
إن تقسيم المدينة، الذي تواصل في السنوات التسع عشرة التالية، كان نتيجة رغبة الدولة اليهودية في إحكام إغلاق القدس الغربية، وفصلها عن المناطق العربية الأُخرى التي احتلها الإسرائيليون سنة 1948. وعنى ذلك تقسيم القدس، في مسعى لمنع اللاجئين العرب الذين طردتهم إسرائيل من العودة إلى هذه المناطق. انظر:
Tom Segev, *1949: The First Israelis* (New York: The Free Press, 1986).

(7) مقابلة مع محمد عبد الحق، 26 أيلول/سبتمبر 1999.

استمراراً لسياسات المحو والاقتلاع والفصل التي بدأت سنة 1948.

ويروي أحد المقيمين سابقاً بحارة المغاربة، وهو رجل كان في الثلاثين من عمره في حزيران/يونيو 1967، أنه فُرض على الحارة بأكملها نظام منع تجول صارم في الأيام التي تلت مباشرة دخول الإسرائيليين البلدة القديمة. وقد حُصر الفلسطينيون في بيوتهم بينما اجتمع "الأسياد" الجدد – المخططون والسياسيون والجنرالات الإسرائيليون – لتحديد مصير حارتهم، والبلدة القديمة ككل.(8) وسرعان ما اتخذت الدولة الإسرائيلية قراراً بعد الحرب (من دون مشاورة السكان الفلسطينيين) بأن المنطقة الموجودة أمام الحائط "لازمة" لاستعمال الدولة اليهودية، وأن الحارة "تعوق" مخططات معماريي الاحتلال، ولا بد من طرد سكانها.

بدأت عملية إزالة هذه المجموعة السكانية غير المرغوب فيها بسرعة، وبتصميم وقسوة فائقة. وفي ليلة 10 حزيران/يونيو 1967، بُلّغ المقيمون بحارة المغاربة البضع المئات إشعاراً مدته ساعتان لإخلاء منازلهم. وقد أُجبر الذين رفضوا الأوامر على إخلاء أماكن سكنهم بالقوة عندما تحركت الجرافات والمصابيح الكاشفة لتدمير المنطقة. وقد جاء هذا الأمر بشكل مفاجئ جداً، إلى درجة أن امرأة من الحارة لم تسمع الدعوات إلى الإخلاء فدُفنت حية تحت الردم في تلك الليلة. ووُجدت جثتها في الصباح التالي تحت أنقاض منزلها.

سُوّيت كل بيوت الحارة، البالغ عددها 135 منزلاً، بالأرض بحلول مساء 11 حزيران/يونيو، وتواصلت "عملية التطهير" بضعة أيام بعد ذلك. غير أنه أُبقي على بعض المنشآت عند الحد الخارجي للحارة في البداية، وأهمها جامع قرب باب المغاربة، والزاوية الفخرية. غير أن هذين المبنيين دُمّرا في النهاية سنة 1969. ويعتقد المؤرخ الفلسطيني ألبرت ألغزريان أن هذه المواقع الدينية تُركت على حالها كالتفاتة إلى الملك المغربي الحسن الثاني، وهو ملك رغبت إسرائيل في تنمية علاقة به، وحافظ كثيرون من المغاربة في هذه الجماعة على علاقات وثيقة به.(9) فنصف المقيمين بالحارة عند تدميرها كان من أصل مغربي. وكثيرون منهم عادوا إلى المغرب عن طريق عمّان بمساعدة الملك الحسن الثاني بعد التدمير. ووجدت عائلات أُخرى من الحارة ملجأ لها

(8) انظر ما يرويه نائب رئيس البلدية السابق، ميرون بنفنيستي (Meron Benvenisti)، عن أحداث ما بعد الحرب في: *Jerusalem: The Torn City* (Jerusalem: Isratypeset Ltd., 1976), and *City of Stone: The Hidden History of Jerusalem* (Berkeley: University of California Press, 1996).

(9) مقابلة مع ألبرت ألغزريان، 6 تموز/يوليو 1999. وكشفت مقابلات مع المختار الحالي للجماعة أنه سافر سنة 1966 إلى المغرب وقدم إلى العاهل المغربي لائحة بسكان الحارة كي تُسَجَّل في وزارة الشؤون الدينية المغربية (مقابلة مع محمد عبد الحق، 14 تموز/يوليو 1999).

في مخيم شعفاط للاجئين، وفي أمكنة أُخرى في القدس.[10]

محمد عبد الحق، المختار الحالي لسكان حارة المغاربة، هو ابن رجل انتقل إلى فلسطين من الرباط في المغرب في عشرينات القرن العشرين. ويصف المعاناة التي كابدتها عائلته والعائلات النازحة الأُخرى في أعقاب اقتلاعهم سنة 1967 ومنذ ذلك الحين. يقول: "في الأيام التي تلت التدمير، كنا أنا وزوجتي وطفلي نعود إلى موقع بيتنا وننتظر أن تزيل الجرافات الإسرائيلية بعض الحطام لعلنا نتمكن من استعادة ثيابنا وحوائجنا الأُخرى، التي لم يكن لدينا وقت لحملها معنا." وقد كرروا هذا الأمر يومياً طوال أسابيع من دون أن يستعيدوا شيئاً من حوائجهم المفقودة. ويتذكر ساكن سابق آخر في الحارة كيف كان الجيش الإسرائيلي يطوّق محيط الحارة المهدمة "لأغراض أمنية" في ساعات بعد الظهر، كي لا يتمكن الذين لا يزالون مقيمين بالمنطقة من العودة إلى بيوتهم، إذا لم يكونوا قد عادوا قبل الإغلاق.

ومن المثير للسخرية أن عدة أشهر كانت مضت على طرد السكان بالقوة وتعبيد الحارة عندما بلّغتهم البلدية ووزارة المالية أوامر الإخلاء والمصادرة. وفي 14 نيسان/أبريل 1968، جاء أمر من وزارة المالية الإسرائيلية بمصادرة 116 دونماً من الأراضي داخل "الحي اليهودي" وحوله "للاستعمال العام".[11] وقد أرفقت هذه الوثائق بعرض إسرائيلي "للتعويض": 200 دينار فحسب لكل عائلة نازحة.[12] ويعتقد عبد الحق أن نحو نصف المقيمين أخذ التعويض. أمّا الآخرون، وهو بينهم، فقد رفضوا المبدأ: إذ إن القبول به، كما أوضح، يعني إضفاء الشرعية على إزالة الحارة.

التطهير العرقي كعملية تاريخية

على الرغم من أن تدمير الحارة تناولته أقلام أُخرى، فإن أعمالاً قليلة عالجت عواقب النزوح على الصعيد الشخصي، وما جرى للسكان السابقين لهذه الحارة المنسية إلى حد كبير. إذ إنه بالنسبة إلى كثيرين من هؤلاء المقيمين الفلسطينيين، كانت عمليات المصادرة الاستعمارية المتتالية هي السمة الملازمة لحياتهم. فعبد الحق نزح هو وعائلته نتيجة العدوان الإسرائيلي في ثلاث مناسبات منذ قيام دولة إسرائيل. ففي سنة 1948، أغارت القوات الصهيونية على قرية عائلته بيت شنّا، وهي قرية مسلمة صغيرة قرب اللطرون، وأفرغتها من سكانها وهدمت بيوتهم. وعندها لجأت العائلة إلى حارة المغاربة، حيث كان لوالده مُلْك صغير. وهناك أقاموا خلال السنوات التسع عشرة التي تلت، حتى وقعت إخلاءات حزيران/يونيو 1967. وفي الفترة التي تلت الحرب عاد

(10) مقابلة مع محمد عبد الحق، 26 أيلول/سبتمبر 1999.

(11) انظر: Israel Government Publication 1443, 1968, p. 1238.

(12) جاء هذا في:

Benvenisti, *Jerusalem: The Torn City*, op. cit.

كثير من العائلات المغربية إلى المغرب، بينما بقي هو وعائلته في القدس في مبنى آخر غير بعيد عن موقع بيوتهم المهدمة. لكن في سنة 1977، طُرد ثالث مرة عندما سعت إسرائيل لـ "تطهير الحي اليهودي"، المبني حديثاً، "من الفلسطينيين". ويقيم المختار وأسرته حالياً بمسكن آخر في الحي الإسلامي.

التبريرات الإسرائيلية لتدمير الحارة:
"حضور المقدَّس"

إن الدوافع التي حدت الدولة الإسرائيلية على محو هذه الحارة هي نفسها التي حثّت على إجراء تغييرات في بقية القدس المحتلة منذ سنة 1948. فهذه المخططات كانت، ولا تزال تقوم على فكرة أن حقوق الشعب اليهودي في عاصمته "الأبدية"، وتجاهها، تُبطل حقوق الفلسطينيين. والمنطق الذي دفع رئيس البلدية السابق، تيدي كوليك، وغيره إلى إجلاء سكان حارة المغاربة يعكس رؤية المخططين الصهيونيين تجاه مواقع أُخرى في أوقات مختلفة، قبل ذلك وبعده. ويورد ميرون بنفنيستي، نائب رئيس بلدية القدس الإسرائيلية آنذاك، كوليك، التبرير المنطقي السائد والاعتبارات "العملية" التي دفعت إلى هذا التدمير وعمليات الهدم والبناء التي غيرت معالم المدينة القديمة:

"لم يكن الحيّز السابق أمام الحائط يستوعب الـ 400.000 نسمة الذين تدفقوا محتشدين إلى الموقع؛ فالعدد الأقصى الذي كان قادراً على أداء الصلاة هناك في عهد الانتداب كان 12.000 شخص في اليوم. وعليه، فقد كانت الاعتبارات العملية هي العامل الحاسم في تدمير مباني الحي العربي."[13]

لقد كانت الرغبة في استيعاب التدفق المتوقع لزوار الحائط اليهود مبرراً لتهجير [جماعة من] شعب آخر وطمس [جزء من] تاريخه. واتخذت سلطات الاحتلال قرارات مماثلة في القدس الشرقية بعد سنة 1967، تتعلق بـ "الحي اليهودي" الذي أعيد تعريفه حديثاً (انظر أدناه)، فضلاً عن أماكن أُخرى في القدس أعيد تشكيلها بصورة جذرية.[14] وعلى صعيد المكان، عنى ذلك تكثيف ممارسات الفصل العنصري، وتشديد حراسة الحدود الحصينة جداً بين الإسرائيليين والفلسطينيين. واستلزم تعزيز الحكم الإسرائيلي في المدينة أيضاً الإفراط في تغيير "التوازن الديموغرافي" بإسكان عشرات الآلاف من الإسرائيليين اليهود في مستوطنات غير قانونية في القدس الشرقية، بينما قيّد كثيراً النمو والتطور الفلسطينيين في المدينة.

(13) Ibid., p. 82.

(14) انظر: Rashid Khalidi, "Transforming the Face of the Holy City: Political Messages in the Built Topography of Jerusalem," *Jerusalem Quarterly File*, no. 4 (Spring 1999), pp. 21-29.

إعادة تشكيل حارة المغاربة

جرى تغيير معالم المنطقة المشكّلة حديثاً أمام الحائط خلال أسابيع بعد تدمير حارة المغاربة. ووصل مئات الآلاف من الإسرائيليين الذين تنبأت الحكومة الإسرائيلية بقدومهم لزيارة الحائط، بعد أيام من "تحرير" المدينة. وقد وصلوا إلى الحائط بعد سيرهم عملياً على أنقاض الحارة العربية السابقة، التي علم بعضهم من دون شك أنها دُمِّرت قبل أيام فحسب. ومن خلال عملية إعادة إعمار سريعة وحازمة أصبحت المنطقة، وتبقى، "ساحة الحائط الغربي" في المعجم الصهيوني السائد.

خُصِّص قطاع أمام الحائط الغربي مباشرة، يبلغ طوله خمسين متراً وعرضه خمسين متراً تقريباً، ليكون بمثابة كنيس للمتدينين الأورثوذكس. واعتُبرت هذه المساحة المحاطة بحواجز بمثابة "حيّز مقدَّس"، وقُسِّمت إلى قطاعين: واحد للنساء، وآخر للرجال. وعندما أعادت الدولة الإسرائيلية تشكيل هذه المنطقة، جرى توسيع المكان الذي يُزعم أن "الرب يتجلّى فيه". فلم يعد مقصوراً على الحيّز الموجود أمام الحائط فحسب، بل اتسع ليشمل عشرات الأمتار أمامه – أي المنطقة التي كانت تشغلها حارة المغاربة المهدمة بالضبط. وبصرف النظر عن صحة مسألة "تجلّي الرب" في المنطقة، فإن تصنيفها أنها جزء "أزلي" و"لا يقبل التغيير" من الأمة اليهودية تكذّبه القيمة المخترعة حديثاً للمكان. وتبرز اعتباطية إقرار هذا الموقع باعتباره "مقدّساً" و"أزلياً" بتوكيد بنفنيستي عدم وجود أي طريقة لتقويم أي قطاع من هذه المنطقة يعود حقاً إلى الدولة اليهودية، وتساؤله "ما مقدار امتداد قداسة الحائط الغربي؟"[15]

يوجد وراء الكنيس القسم الأكبر من مساحة الحارة المهدمة. وهذا المكان لا يُستغل كثيراً للأغراض العلمانية، قياساً بالأغراض الدينية، وإنما للطقوس التي يلتقي فيها الدين والوطنية والعسكرية، وتندمج معاً. فهذا هو موقع احتفالات قَسَم اليمين للجنود الإسرائيليين، فضلاً عن المحطة الأخيرة لـ "مسيرة القدس" السنوية: وهي مشهد جماعي إسرائيلي ينظَّم لإظهار حق الدولة اليهودية الحصري في المطالبة بـ "عاصمتها الموحَّدة".

الحي اليهودي الإسرائيلي: أزلي أم بدعة حديثة؟

قلما تُعرف الحقيقة بأن معظم ما تسميه إسرائيل اليوم "الحي اليهودي" هو، في الواقع، أرض مصادرة من الفلسطينيين. فما نسبته 20٪ فقط من أرض الحي الحالي هو ملكية يهودية في الواقع. وقد صار إخفاء هذه الحقيقة أقل صعوبة اليوم، نظراً إلى أن نحو 6000 من العرب المسيحيين والمسلمين طُردوا من هذه المنطقة في البلدة

(15) Benvenisti, *City of Stone*, op. cit., p. 84.

القديمة خلال السنوات التي أعقبت سنة 1967. ويُحظر على الفلسطينيين العيش في "الحي اليهودي" المحدّد حديثاً، لسبب بسيط هو أنهم ليسوا يهوداً. وهذا الحظر الصريح ابتكرته شركة خاصة أُوكلت إليها مسؤولية "تطوير الحي اليهودي" و"إعادة بنائه" بعد سنة 1967.

ويبقى هذا الشرط التمييزي "قانوناً صالحاً" بقرار اتخذته المحكمة العليا الإسرائيلية سنة 1978. وتعرف المسألة المعنية بقضية بُرقان، وتنطوي على نزاع بين محمد بُرقان والدولة الإسرائيلية بشأن منزل عائلة بُرقان.[16] وقد ذكرت المحكمة العليا الإسرائيلية في حكمها شيئاً مثيراً جداً. إذ اعترفت بأن ملكية المنزل تعود في الواقع إلى بُرقان، لكنها رفضت إعادته إليه لأن للمنطقة "أهمية تاريخية خاصة" بالنسبة إلى اليهود. وهذه "الأهمية" لها الغلبة على كل المطالب الأُخرى لغير اليهود، بما في ذلك صاحب المنزل الفعلي. لذلك تمت مصادرة ملكية بُرقان من جانب الدولة الإسرائيلية. وطُردت عائلته من المنطقة، على غرار عشرات العائلات الأُخرى.

خلاصة

إن قصة حارة المغاربة والعمليات العنيفة التي أدت إلى إزالتها، لا تنطوي على سرد للأحداث فحسب، بل على مغاز رمزية أيضاً. فتدمير مجتمع هذه الحارة ينسجم مع ممارسات العنف ورؤى الحقوق الحصرية التي حددت السياسة الإسرائيلية وسبّبتها في القدس المحتلة منذ سنة 1948. إن إعادة التشكيل الواسعة للمدينة بما يتلاءم مع مخططات الفصل العنصري (وهي عملية لا تزال مستمرة) لم تطمس تواريخ أحياء كانت مقصورة على فئة واحدة متجانسة فحسب، بل قضت أيضاً على سلاسة التفاعل والتمازج بين جماعات متعددة (وإن لم يكن التعاون تاماً دائماً) في حيّز حضري كان يعج بالحياة والتغيّر. وعلى المرء أن يشعر بحنين إلى ماضي القدس للإقرار بهذا التراث والتواريخ الكثيرة التي تكوّنه.■

●●●

مقتطفات من مقابلة نُشرت في اليومية الإسرائيلية "يورشلايم" في 26 تشرين الثاني/نوفمبر 1999، مع الرائد إيتان بن موشيه، الضابط المسؤول عن تدمير حارة المغاربة.

● "قبل تدمير الحارة، مرت وحدة من الجيش أمام المنازل العربية وأمرت سكانها بمغادرة بيوتهم خلال 15 دقيقة. وبعد أن أنهينا تدمير الحارة، عثرنا بين الحطام على جثث لبعض المقيمين الذين رفضوا مغادرة بيوتهم.

"كان هناك ثلاث جثث، وقد نقلتُها إلى مستشفى بيكور حوليم في القطاع الغربي

(16) بُرقان ضد وزير المالية (1978).

من المدينة. لكن كان هناك جثث أُخرى.

"قمنا بدفنها. انظر، لقد دمّرتُ الحارة بأكملها. غير أنني لم أعثر على مثقال ذرة من تراب. فهناك، تحت حائط المبكى، بقايا تسع حقبات تاريخية مختلفة، واحدة فوق الأُخرى. وعندما تحفر هناك، تصل إلى أحياز فارغة. في ذلك الوقت كنت حفرت بحثاً عن حقب تاريخية، ورميت كل النفايات. رمينا حطام المنازل إلى جانب جثث العرب لا اليهود، كي لا يحوّل اليهود المنطقة إلى مكان يُحظر دوسه."

● "بدأت القصة بأكملها بعد انتهاء معارك القدس. في ذلك الوقت، وضع رئيس بلدية القدس، تيدي كوليك، على قصاصة من الورق إشارات إلى المواقع التي يجب هدمها في الحارة. غير أن سائقي الجرّافات تحدوا الأوامر ودمروا منازل أُخرى. وفقدت نحو 135 عائلة فلسطينية منازلها.

خطط تيدي ورفاقه لعمل صغير لا يؤثر في المواقع المقدسة. كان هناك مسجد في المنطقة يدعى مسجد البراق، بُني فوق الموقع الذي صعد منه حصان النبي محمد [صلّى الله عليه وسلم] إلى السماء. قلت إن كان الحصان قد عرج إلى السماء، فلماذا لا يعرج المسجد أيضاً! لذا دمرتُه أيضاً من دون أن أخلّف أي أثر."

وعندما سُئل الرائد بن موشيه لماذا لم يُسمح للمقيمين بنقل أثاثهم وحوائجهم، أجاب:

"لم يكن هناك وقت. كان ذلك اليوم السبت، والثلاثاء التالي يصادف الاحتفال بالفصح اليهودي بحسب التوراة. وفي ذلك الوقت، كان يُنتظر قدوم كثير من اليهود إلى حائط المبكى، وكان أمامنا يومان فقط لإعداد الساحة."

● "قال لي مسؤول رفيع المستوى إنه إذا واجهنا ردات فعل دولية كثيرة، فسنقول إنك قمت بذلك على مسؤوليتك الشخصية، وأننا سوف نحكم عليك بالسجن خمسة أعوام، ومع ذلك سنصدر عفواً عنك في اليوم التالي. وقد قبلت العرض."

وعندما سُئل بن موشيه هل كان يشعر بوخز الضمير بشأن تدمير المنازل من دون أن يدقّق إن كانت خالية، أجاب:

"لا، أنا أتحدر من عائلة متدينة، وأنا أؤمن بسيادة إسرائيل وبأن المكان ملك لنا."■

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar/mdf